قصة لقاء..

للأستاذ عبد الله نيازى

هذه قصة لقاء بين جميل بن معمر العذرى وحبيبته بثينة ...

وهى صورة صادقة من صور الحب فى البادية - ولون من ألوان الغزل البريء ... ففى الوقت الذى يقطع فيه العاشق المتيم المسافات البعيدة ، ويتجشم المخاطر والصعاب - ليرى من شغفته حباً . وملأته هوى ، لا يطمع منها بغير النظر اليها - أو التمتع بالحديث منها ساعة أو بضع ساعات ، ثم يرجع وهو من النشوة يكاد أن يطير ، لماذا ؟ لأنه تحدث إلى حبيبته - وتحدثت إليه - ربما لواعجه بألطف لفظ وأعفه . وشاركته نجواه بأرق لفظ وأعذبه علها تجد طريقها إلى شباب هذا العصر الذى رق عندهم الحب وأصبح المفهوم من هذا اللفظ - هو رشف الثغور ، وشم النهود ، وإرضاء الغرائز

قال معبد المغنى المشهور وقد ذهب إلى الغريض ليسمع عنه ، فقرع الباب إلا أن أحداً لم يكلمه - فسأل بعض الجيران فقالوا : هو فى الدار ، فرجع وغنى لحناً فى شعر جميل :

علقت الهوى منها وليداً فلم لايزل ... إلى اليوم ينمى حبها ويزيد

فما شعر إلا بصائح يصيح : يا معبد المغنى - افهم وتلق عنى شعر جميل الذى تغنى فيه يا شقى النجفه - وغنى - وحين أراد معبد الانصراف إلى المدينة ، سمع بصائح يصيح يا معبد - انتظر أكلمك - فدخل وسلم - ثم جلس - وتحدثا قليلا - وخرج معبد من عنده - ورجع إلى المدينة - فتحدث بحديثه - وعجب من فطنته وقيافته ! قال معبد وذكرت جميلا وبثينة فقلت : ليتنى عرفت انساناً يحدثنى بقصة جميل وخبر الشعر فأكون أخذت بفضلة الأمر كله فى الغناء والشعر ، فسألت عن ذلك فاذا الحديث مشهور ، وقيل لى : ان أردت أن تخبر عما شاهدته فأت بنى حنظلة ، فان فيهم شيخاً منهم يقال له فلان يخبرك الخبر ، فأتيت الشيخ فسألته فقال : نعم ، بينا أنا فى أبلى فى الربيع إذا برجل منطو على رحله كأنه جان فسلم على ثم قال : ممن أنت يا عبد الله ؟ فقلت أحد بنى حنظلة ؛ قال : فانتسب ؛ فانتسبت حتى بلغت إلى الفخذ الذى أنا منه ؛ ثم سألنى عن بنى عذرة أين نزلوا ؛ فقلت له : هل ترى ذلك السفح ؛ فانهم نزلوا من ورائه ؛ قال يا أخا بنى حنظلة ، هل لك فى خير تصطنعه إلى ؟ فو الله ما أعطيتنى ما أصبحت تسوق من هذا الأبل ما كنت بأشكر منى عليه به . فقلت نعم ، ومن أنت أولا ؟ قال : لا تسألنى من أنا ولا أخبرك ؛ غير انى رجل بينى وبين هؤلاء القوم ما يكون بين بنى العم - فان - رأيت ان تأتيهم فانك تجد القوم فى مجاسهم تنشدهم بكرة أدماء تجر خفيها غفلا من السمة ، فان ذكروا لك شيئاً فذاك ، وإلا استأذنتهم فى البيوت وقلت : إن المرأة والصبى قد يريان مالا يرى الرجال ، فتنشدهم ولا تدع أحداً تصيبه عينك ولا بيتاً من بيوتهم إلا نشدتها فيه ، فأتيت القوم فاذا هم على جزور يقتسمونها ، فسلمت وانتسبت لهم ونشدتهم ضالتى . فلم يذكروا لى شيئاً ، فاستأذنتهم فى البيوت وقلت : إن الصبى والمرأة يريان مالا ترى الرجال ، فأذنوا ، فأتيت أقصاها بيتاً ثم استقرفيها بيتاً بيتاً أنشدهم فلا يذكرون شيئاً ، حتى إذا انتصف النهار وآذانى حر الشمس وعطشت وفرغت من البيوت وذهبت لأنصرف ، حانت منى التفاتة فاذا بثلاثة أبيات ، فقلت : ما عند هؤلاء إلا ما عند غيرهم ، ثم قلت لنفسى : سوءة ! وثق بى رجل وزعم أن حاجته تعدل مالى ثم آتيه وأقول : عجزت عن ثلاثة أبيات ! فانصرفت عامداً إلى أعظمها بيتاً ، فاذا هو قدارخى مؤخره ومقدمه ، فسلمت فرد على السلام ، وذكرت ضالتى ، فقالت جارية منهم : يا عبد الله . قد أصبت ضالتك ، وما أظنك إلا قد اشتد عليك الحر واشتهيت الشراب . قلت أجل ؛ قالت : أدخل ، فدخلت فأتتنى بصحفة فيها تمر من تمر هجر ، وقدح فيه لبن ، والصحفة مصرية مفضضة والقدح مفضض لم أر إناء قط أحسن منه ؛ فقالت : دونك ؛ فتجممت وشربت من اللبن حتى رويت ، ثم قلت : يا أمة الله ، والله ما أتيت اليوم أكرم منك ولا أحق بالفضل فهل ذكرت من ضالتى شيئاً ؟ فقالت : هل ترى هذه الشجرة فوق الشرف ؟ قلت نعم ، قالت فان الشمس غربت أمس وهى تطيف حولها ثم حال الليل بينى وبينها ؛ فقمت وجزيتها الخير وقلت : والله لقد تغديت وويت !

فخرجت حتى أتيت الشجرة فأطفت بها ، فوالله ما رأيت من أثر . فأتيت صاحبي فاذا هو متشح في الأيل بكسائه ورافع عقيرته يغني، قلت : السلام عليك ؛ قال : وعليك السلام ما وراءك ؟ قلت ؛ ما ورائي من شيء . قال : لا عليك ! فأخبرني بما فعلت ، فاقتصصت عليه القصة حتى انتهيت إلى ذكر المرأة وأخبرته بالذي صنعت ؛ فقال: قد أصبت طلبتك ؛ فعجبت من قوله وأنا لم أجد شيئاً . ثم سألني عن صفة الأنادين : الصحفة والقدح، فوصفتهما له فتنفس الصعداء وقال : قد أصبت طلبتك ورحمك ! ثم ذكرت له الشجرة وانها رأيتها تطيف بها، فقال : حسبك ! فمكثت حتى إذا أوت إبلي إلى مباركها دعوته إلى العشاء فلم يدن منه ، وجلس مني بمزجر الكلب ، فلما ظن اني قد نمت ومقته فقام إلى عيبة[1] له فاستخرج منها بردين ، فأتزر باحدهما وتردى بالآخر ، ثم انطلق عامداً نحو الشجرة . واستبطنت الوادي فجعلت أخفي نفسي حتى إذا خفت أن يراني انبطحت ، فلم أزل كذلك حتى سبقته إلى شجرات قريب من تلك الشجرة بحيث أسمع كلامهما فاستترت بهن، وإذا صاحبته عند الشجرة ، فأقبل حتى كان منها غير بعيد، فقالت : اجلس؛ فوالله لكأنه لصق بالأرض ، فسلم عليها وسألها عن حالها أكرم سؤال سمعت به قط وأبعده من كل ريبة . وسألته مثل مسألته ، ثم أمرت جارية معها فقربت إليه طعاماً. فلما أكل وفرغ ، قالت أنشدني ما قلت : فأنشدها :

علقت الهوى منها وليداً فلم يزل ... إلى اليوم ينمى حبها ويزيد

فلم يزالا يتحدثان ، ما يقولان فحشاً ولا هجرا ، حتى التفتت النفاقة فنظرت إلى الصبح ، فودع كل واحد منهما صاحبه أحسن وداع ما سمعت به قط ثم انصرفا. فقمت فمضيت إلى ابلي فاضطجعت وكل واحد منهما يمشي خطوة ثم يلتفت إلى صاحبه . فجاء بعدما أصبحنا فرفع برديه ثم قال : يا أخا بني عميم . حتى متى تنام ؟ فقمت وتوضأت وصليت وحلبت إبلي وأعانني عليها وهو أظهر الناس سروراً ، ثم دعوته إلى الغداء فتغدى ، ثم قام إلى عيبة فافتتحها فاذا فيها سلاح وبردان مما كسته الملوك ، فأعطاني أحدهما وقال: أما والله لو كان معي شيء ماذخرته عنك . وحدثني حديثه وانتسب لي ، فاذا هو جميل بن معمر والمرأة بثينة ، وقال لي: إني قد قلت أبياتاً في منصرفي من عندها ، فهل لك إن رأيتها أن تنشدها ؟ قلت : نعم ! فانشدني :

وما أنس م الأشياء لا أنس قولها ... وقد قربت نضوي أمصر تريد

ثم ودعني وانصرف ، فمكثت حتى أخذت الإبل مراتعها ، ثم عمدت إلى دهن كان معي فدهنت به رأسي ، ثم ارتديت البرد وأتيت المرأة فقلت : السلام عليكم ، إني جئت أمس طالباً واليوم زائراً، أفتأذنون ؟ قالت: نعم، فسمعت جويرية تقول لها: يا بثينة عليه والله برد جميل ، فجعلت أثني على ضيفي وأذكر فضله . وقلت: إنه ذكرك فأحسن الذكر، فهل أنت بارزة حتى أنظر إليك؟ قالت: نعم ، فلبست ثيابها ثم برزت ودعت لي بطرف. ثم قالت: يا أخا بني عميم ، والله ما ثوباك هذا بمشتبهين ، ودعت بعيبتها فأخرجت لي ملحفة [1] مروية مشبعة من العصفر ، ثم قالت : أقسمت عليك لتقومن إلى كسر البيت ولتخلعن مدرعتك [2] ثم لتأتزرن بهذه الملحفة فهي أشبه ببردك . ففعلت ذلك وأخذت مدرعتي بيدي فجعلتها إلى جانبي . وأنشدتها الأبيات فدمعت عيناها ، وتحدثنا طويلا من النهار ، ثم انصرفت إلى إبلي بملحفة بثينة وبرد جميل ونظرة من بثينة .. قال معيد : فجزيت الشيخ خيراً وانصرفت من عنده وأنا والله أحسن الناس حالا بنظرة من الغريض واستماع لغنائه ، وعلم بحديث جميل وبثينة فيما غنيت به وفيما غنى به الغريض على حق ذلك وصدقه ، فما رأيت ولا سمعت بزوجين قط أحسن من جميل وبثينة ، ومن الغريض ومني ..

وهذه أبيات من القصيدة التي قالها جميل :

علقت الهوى منها وليداً فلم يزل ... إلى اليوم ينمى حبها ويزيد
وأفنيت عمري في انتظاري نوالها ... وأفنت بذاك الدهر وهو جديد
فلا أنا مردود بما جئت طالبا ... ولا حبها فيما يبيد يبيد
وما أنس م الأشياء لا أنس قولها ... وقد قربت نضوي أمصر تريد
ولا قولها لولا العيون التي ترى ... لزرنك فاعذرني فدتك جدود
إذا قلت مابي يا بثينة قاتلي ... من الحب قالت ثابت ويزيد
وإن قلت ردي بعض عقلي أعش به ... تولت وقالت ذاك منك بعيد

بغداد — عبد الله نيازي

(١) العيبة وعاء من أدم يكون فيه المتاع

(١) الملحفة (بالكسر) اللباس فوق اللباس من دثار ونحوه ومروية نسبة الى « مرو » بلدة بفارس

(٢) المدرعة : ضرب من الثياب ، ولا تكون إلا من الصوف